

الخطاب الأدبي بين بلاغة التلقي وتلقي البلاغة

"The Literary Discourse between the Rhetoric of Reception and the Receiving Rhetoric"

مجاهد بوسكين*

جامعة مصطفى اسطمبولي (معسكر)

medjahed.bouskine@univ-mascara.dz

تاريخ القبول: 2022/05/13

تاريخ الإرسال: 2022/05/05

الملخص:

يعالج هذا البحث الموسوم: "الخطاب الأدبي بين بلاغة التلقي وتلقي البلاغة"، إشكالية تلقي الخطاب من زاويتين اثنتين، أولاهما: تلقي الخطاب في مضمار البلاغة سواء العربية أو البلاغة الغربية الجديدة، وكذا المقاربة التداولية، وثانيهما: كيف يرمج النص لذاته في ذاته بلاغة تلقيه من خلال برامج التلقي التي يقترحها شكلا ومضمونا، ومن ذلك أن النص السردي يرمج تلقيه معتمدا على التخيل والدراما من ناحية، وعلى استثارة المسرود له وإقناعه من ناحية ثانية، بينما الخطابة ترمج تلقيها مستندة إلى الحجاج الذي تتبناه للدفاع عن رأي، أو دحض فكرة بغية إقناع المخاطب، فيما النص الشعري يعتمد على الصورة الشعرية والإيقاعات الخاجية والداخلية .. وهكذا دوليك، مما يعني أن التلقي ينطوي على بعدين اثنين متوازيين، هما التلقي الذي يرمجه الجنس الأدبي، والتلقي الذي يقترحه القارئ، المعبر عنه في نظرية التلقي بأفق التوقع (النص، القارئ). وفي نظرية "أمبرتو إيكو" بالاستراتيجية النصية (استراتيجية النص، استراتيجية المتلقي).

الكلمات المفتاحية: التلقي: البلاغة: النص، التداولية: الحجاج: البلاغة العربية.

Abstract:

This research deals with: Literary discourse between the rhetoric of receiving and receiving rhetoric. The Problematic of receiving the speech from two angles, First: Receiving a speech in the field of rhetoric, whether Arabic or the new Western rhetoric, as well as the deliberative approach, And the second: How does the text program itself in the eloquence it receives? Through the receiving programs that he proposes in form and content, on the other hand, While rhetoric is programmed to be received based on the pilgrims which you adopt to defend an opinion, or refute an idea in order to persuade the addressee, While the poetic text depends on the poetic image and the external and internal rhythms .. Which means that receptiveness involves two parallel dimensions, They are the reception programmed by the literary genre, And the reception that the reader proposes, Expressed in the theory of reception with the horizon of expectation (text, reader), In Umberto Eco's theory of textual strategy (text strategy, recipient strategy).

Keywords: rhetoric; Text, Pragmatic; pilgrims; Arabic rhetoric.

*المؤلف المرسل: بوسكين مجاهد.

مقدمة:

يتمظهر النصّ الأدبيّ لسانيا نسيجا متشابكا من الزخارف التعبيرية، يتعالق فيها الحرف مع الكلمة والكلمة المفردة مع الجملة، والجملة مع الفقرة، ويحكم كلّ ذلك نظام معيّن، أو مجموعة من الأنظمة والأنساق، وبعبارة أدقّ يتركّب النصّ من وحدات صغيرة تنتظم فيما بينها لتؤلّف وحدات أخرى أكبر منها، والكلّ مرتبط مع بعضه البعض وفق نسق معيّن، وبحسب ترتيب خاص، ويتموقع المؤلف وراء النصّ باعتباره مصدر كلّ ما يرد في متنه من أخبار وأفكار، بينما يقبع القراء في الأمام لأتهم مقصد المضمون النصّي.

والقراء هم من يقع على عاتقهم إدراك فحوى النصوص وفكّ شفراتها ومغلقاتها، وبهذه الصورة تتشكّل معالم العلاقة العضوية والديالكتيكية في آن واحد بين الكاتب والقارئ، من حيث أن "الكتابة هي عملية وضع للصياغة، والقراءة هي عملية كشف عنها"¹، وهي نفس العلاقة التي يشتمل عليها الاتصال، اتكاء على عمليتي الترميز (Codage) وفك الترميز (Décodage) مع فوارق بسيطة، تتجسد في كون الاتصال على صورته الأولى (الكلامية) يكون مباشرا، بينما على صورته الثانية (الكتابية) يكون غير مباشر، ذلك أنّ "عملية الكتابة والتسجيل هي بمثابة الإرسال، وبقاء محتوى الكتاب مكتوبا، هو المسلك الذي يضمن للكتاب الديمومة عبر الزمان والمكان، وأخيرا فإنّ عيون القراء و عقولهم هي أجهزة الاستقبال"²، ممّا يعني أن ماهية النصّ هي ماهية اتّصال وتبليغ في الأساس، والفرق بين الماهيتين يكمن في أن النصوص مقارنة بالاتّصال العادي المباشر مطالبة بتحيينها واستنطاقها، والسؤال الذي يطرح على هذا المستوى هو كيف يتسنى ذلك؟ لأنّ أمر التحيين هنا لا يقتصر على النسق اللّساني للنصّ فقط، والقواعد التركيبيّة التي يوجد ما يقابلها (افتراضا) للتعرف على الوظيفة الموازية للمصطلحات الموجودة في بنية الجملة، وإنّما يتعدى ذلك إلى المقصدية المتوخاة منه والتأويل الذي ينم عنه، نظرا لما يمتاز به النصّ عن الأنماط الأخرى من التعبير بتعقده الكبير، "والسبب الأساسي في ذلك هو أنه نسيج من المسكوت عنه (Non dit) (الذي يعني) عدم الظهور على السطح على مستوى العبارة (وهو الذي) يجب تحقيقه على مستوى تحقق المضمون بالضبط"³. وههنا تتمظهر فاعلية القارئ في إنتاج المعنى من خلال أطر محددة؛ أي عليه أن يتعامل بفطنة وذكاء مع الفضاءات البيضاء، "والفجوات التي يجب ملؤها، (لأنّ صاحبها الذي أرسلها) كان ينتظر دائما بأنّها ستملأ..⁴، هذا فضلا عن أن النصّ يشكل "إواليّة (Mécanisme)، بطيئة (أو اقتصادية) تعيش على فائض قيمة المعنى الذي يدخله فيها المتلقي"⁵ بتعبير "أمبرتويكو".

والحال هذه هل هناك منهجية قرائية ناجعة وشاملة وكاملة تنهض بإعادة بناء وصياغة النصّ من جديد؟ أو بتعبير آخر، كيف يتسنى حياكة نسيج نصي موازٍ للنسيج الأصل، يحمل فحواه ودلالته، ويفكّك ترميزه وشفراته؟ في عمل من الممكن أن يكون تنويجا لدراسة، تتقصى السياق التداولي، فالسياق المعرفي، ثم السياق الاجتماعي وما يدخل تحت سطوة كل سياق من الأسيقة. وتبعا للحقائق التي أثرناها من زاوية، ولأنه لا توجد في المنظومة النقدية نظرية متكاملة من حيث التنظير، تهمل من كامل المناهج وتستوفي الشروط الضرورية للنصّ في عموميتها وخصوصيتها من

زاوية أخرى، أمسى من الضروري البحث عن منهج إجرائي كفيل بتدارس الظاهرة الأدبية، يستثمر في نظريات القراءة الحديثة، ويستعين في الوقت نفسه بالعناصر والأدوات الإجرائية التي هي على علاقة بما يبينه النصّ في طياته، ولا تعيرها هذه النظريات كبير اهتمام؛ أي لا ينبغي تدارس النصّ من منظور أحادي الجانب، يقصر تسليط دائرة الضوء النقدي على المتلقي بمفرده أو النصّ بمفرده أو المبدع بمفرده، بل من زوايا رؤيوية متعدّدة ومتنوعة، بجعل الدراسة تمتدّ إلى كامل العناصر التي تشتمل عليها مسارات التلقي بناء على معمارية النصوص ووفق الخصوصية التبليغية لكل خطاب أو جنس أدبيّ، دراسة تسلّط الضوء على:

- مرسل الخطاب/الفاعل في النص.

- بنية الخطاب.

- سياق الخطاب.

- مرجعية الخطاب ومقام الإرسال.

- مرجعية الخطاب ومقام التلقي.

وهي العناصر التي لا يستوفها أيّ برنامج قرائي ماعدا البلاغة الجديدة أو البلاغة العامة بالمفهوم الأوسع، بوصفها مقارنة تدارس الخطاب الأدبي في مضمار تلقيه، مركزة على حيّز تأثيره في القارئ، حيث تموضع عدستها الاستقرائية على المسافة الواصلة بين الناص والمتلقي/القارئ، بغية الوقوف على الأثر الجمالي والحجاجي التداولي الذي يؤثته العمل الأدبي لاستثارة متلقيه والتأثير فيه.

1- نظرية البلاغة النصية:

النصّ الأدبيّ مقارنة بالخطابات الأخرى السياسية، الفلسفية، القضائية، الإشهارية .. له بناء معماري خاص يجعله يبين أسلوب تلقيه وفق استراتيجية تواصلية يحددها هو في الأساس، ولذلك لا يمكن الحديث عن بلاغة النص، أو مقارنة بلاغية للنص وما شابه ذلك دون الحديث عن نظرية بلاغية نصية، تمهض بوظيفة تلقي العمل الأدبي وتأويله من زاويتين اثنتين:

- أولاهما تبيان وحداته وعناصره الحجاجية التواصلية التي تبينها، باعتباره نتاجا وظيفيا تواصليا.

- وثانيتهما الإحاطة بمكوناته الأدبية الجمالية التخيلية، بوصفه إبداعا قوامه الخيال، والشعرية التي تضي عليه المسحة الجمالية.

وهذا المنظور تغتدي منهجية النظرية البلاغة النصية تقارب الأثر الأدبي من زاوية وظيفة تأثيره العملي في المتلقي أدبيا جماليا (التخييل)، وتداوليا (نظرية في الخطاب الفعّال)، وتستوعب البلاغة بذلك الخطابين التخيلي والتداولي معا، وتترأى بلاغة جامعة أو كلية أو عامة، تضمّ الحجاج إلى الأسلوب، لدواعٍ منهجية وإجرائية ضرورية، أو بتعبير "أوليفيروبول": "لن نبحت عن جوهر البلاغة لا في الأسلوب ولا في الحجاج بل في المنطقة التي يتقاطعان فيها بالتحديد. بعبارة أخرى، ينتهي إلى البلاغة بالنسبة إلينا كل خطاب يجمع بين الحجاج والأسلوب، كل خطاب تحضر فيه الوظائف الثلاث: المتعة والتعليم والإثارة مجتمعة متعاضة، كلّ خطاب يقنع بالمتعة والإثارة مدعمتين

بالحجاج⁶، والخطاب الأدبي شئنا أم أبينا ينطوي بطريقة أو أخرى على الوظائف ذاتها، والبلاغة بالمقابل على علاقة عضوية وجدلية مع الإبداع الأدبي، كونها تنطوي دلاليا على مفاهيم التعبير الجميل والأسلوب الممتع والإبلاغ، والجودة، وحسن الصياغة والتركييب .. وما إلى ذلك من العناصر التي حددها "أبو حيان التوحيدي" في تعريفه للبلاغة: "أما البلاغة فإنها زائدة على الإفهام الجيد، بالوزن والبناء، والسجع والتقفية، والحلية الرائعة، وتخير اللفظ، وهذا الفن لخاصة الناس، لأن القصد فيه الإطراب بعد الإفهام"⁷، ولا يختلف اثنان حول ارتباط الأدب بالسمات المذكورة، التي يحيل بعضها على داخله/بنائه، وبعضها الآخر يحيل على خارجه/تلقيه، وبناءً على هذه السمات وتعددها تطالعنا نظرية البلاغة باتجاهين متوازيين، أحدهما يعدها منهجا كليا، والآخر يتعامل معها على أساس بلاغات نوعية خاصة، وبين هذا وذاك تظل نظرية البلاغة الأدبية "تمثل المبادئ والآليات التي بموجبها يصبح النص قادرا على التأثير في متلقيه جماليا وتداوليا، وتوحي البلاغة بهذا التصور أنها مقارنة تزوج بين وجهين يسعيان معا باستمرار إلى التأثير في المتلقي، هما الوجه الأسلوبى والوجه الحجاجي، بحيث لا تكتفي بأحد الوجهين خلال مقاربتهما، بل تتوخى النظر في منطقة التقائهما"⁸، عبر تسليط الضوء على التراكيب الأسلوبية التي تعطي القيمة الفنية والجمالية للنص، والصور التي تؤثت فضاءه التخيلي، إلى جانب تحديد البنى الحجاجية، وتستثمر نظرية البلاغة في هذا النطاق في التراكيب الأسلوبية لكشف الوظائف الإقناعية التي تشكل ما يعرف بـ"الخطاب الفعال" في امتداداته التأثيرية التواصلية، من خلال برنامج إجرائي يتتبع الخطوات الأساسية التالية:

-التراكيب الأسلوبية.

-أدوات الإقناع والحجاج.

-مجريات الحوار.

-التناص.

-مقام النص ..

2- البلاغة والمقاربة التداولية للخطاب الأدبي:

من مسلمات المنطق والفلسفة أن الإنسان يستخدم اللغة لوصف الواقع، وعليه إذا واكب النص الواقع ونسخه نسخا مطابقا للأصل يكون النص صادقا، وإذا خالفه يكون نصا كاذبا، والرأي عينه أو بالتقريب تطالعنا به البلاغة العربية في معرض توصيفها للخبر والإنشاء، إذ تعتبر "الخبر" تعبيرا يحتمل الصدق أو الكذب،⁹ ولكن عندما نتأمل النصوص والجمل بمختلف أشكالها وألوانها نجد كثيرها لا يحتكم لقواعد الصدق أو لآليات الوصف المطابق للواقع، بل تتغيا التغيير والثورة عليه موظفة الإيهام الوصفي (the descriptive pallacy/l'illusion des criptive) بتعبير "ج، أوستين".

ومعنى هذا أن الأثر الأدبي بقدر ما يحمل بداخله الأخبار والأقوال .. بقدر ما يتضمن جملة من الأفعال الإنجازية ذات الشحنة التداولية، التي تستهدف إثارة المتلقي وتغيير وضعه والتأثير في شخصيته ومعتقداته، بطريقة أو أخرى من قبيل "افعل هذا" و"تجاوز هذا"¹⁰.

ولهذا ذهبت التداوليات التحليلية سواء مع "أوستين" في كتابه "نظرية أفعال الكلام" (1962)، أو "سيرل" في كتابه "أفعال اللغة" (1969)، إلى اعتبار الإنتاج الأدبي أفعالاً لغوية تتعدى كونها ملفوظات ومفردات إلى أنها أفعال إنجازية تتمتع بالقوة الإنجازية ذات التأثير في المتلقي.

وفي خضم هذا المنطق موضعت نظرية الأفعال اللغوية في تصورهما للجمل والأفعال ثلاثة مستويات للأداء الكلامي/الفعلي:

1. التلفظي/الكلامي (le locutoire)

2. الإنجازي/التكلمي (l'ilocutoire)

3. التأثيري بالقول/التكلمي (le perlocutoire)

فأما المستوى الأول (فعل التلفظ الكلامي) فهو الجمل المفيدة التي تتضمن عبارات تتميز بحسن الصياغة والتركيب، ذات محتوى قضوي/تنغيا الإبلاغ، من قبيل: "حسنا فعلت يا زيد"

أما المستوى الثاني (الفعل الإنجازي) فيعني المقصدية المتوخاة التي ينشدها المتكلم من فعل القول، من قبيل: الأمر والتحذير والوعد .. على شاكلة هذه الجملة: "لا تختبر صبري".

بينما المستوى الثالث: فعل التأثير: فالمقصود به القوة الإنجازية لفعل التأثير، أي الأثر الذي يتركه في المتلقي/المخاطب، فيقوم باستجابة ما أو فعل ما، كما هو الشأن ل: (الإرشاد، التوجيه، التلاعب ..).

وقد تشتمل الجملة نفسها على المستويات الثلاثة في الآن ذاته، وبذلك تكتمل القوة الإنجازية للفعل الكلامي، وخذ على سبيل المثال الجملة التالية: "لا تفتعل الفوضى داخل المدرج".

وواضح من الجملة أنها تحتوي على فعل لغوي في جملة مفيدة، تشتمل على المستويات (الصوتية والتركيبية والدلالية)، هو فعل يقتضي الإخبار مجسداً فعل القول، وبالموازاة وذلك يؤدي فعل الإنجاز المتمثل في القصد الذي ينطوي عليه الملفوظ، والذي يفيد تحذير الطالب من افتعال الفوضى، كما ينهض بفعل التأثير، من خلال الصدى الذي سيتركه المقول في الطالب فيردعه، ويجعله يستجيب لمطلب الأستاذ.

وفضلاً عن هذه المستويات حدد "أوستين" الملفوظات في نمطين اثنين:

1. الملفوظات الوصفية التقريرية: التي تحتكم لقواعد الصدق والكذب.

2. الملفوظات الإنجازية: وتحتكم إلى:

-ينبغي أن يتضمن الفعل الكلامي إنجازاً (تحذير، طلب، وعد ..) مبنياً للمعلوم.

-أن يلحق الفعل الكلامي لضمير المتكلم.

-أن يرتبط الفعل الكلامي بالراهن/الزمن الآني.

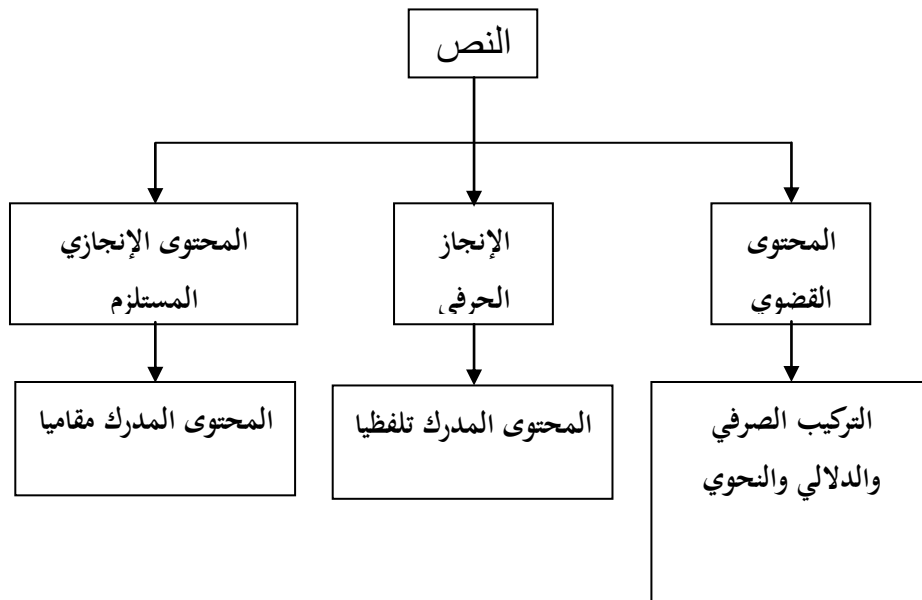
وزيادة على هذا اشترط "أوستين" أن تلتزم الأفعال الكلامية/الإنجازية بجملة من القواعد، حتى تؤدي غايتها التداولية كقوة إنجازية، يأتي في طليعتها:

- أن يمتلك الطرف الفاعل في العملية الأفكار والمشاعر وقدرة استحضارها لحظة الإجراء، وبالمقابل يفترض أن تكون لدى المشاركين قابلية تقبل الطلب المقصود.

وفي ضوء هذه المعطيات ميّز "أوستين" أيضا في الملفوظات الإنجازية بين الجمل الإنجازية المضمر، والجمل الإنجازية الصريحة.

وتجلي هذه المعطيات بشكل صريح أنّ "الحكم على الملفوظات لم يعد مرهونا بمعيار الصدق والكذب، كما هو الحال عند المناطقة والفلاسفة والبلاغيين، وإنما مداره حول الأثر الذي يحدثه فعل القول في المخاطب، فيكون فعل الإنجاز ناجحا إذا استجاب المخاطب، واقتنع بمقاصد المتكلم، كما قد يكون فاشلا حين يعجز المتكلم عن التأثير في المخاطب، ولا يقدر على دفعه نحو التصرف والفعل"¹¹

وخلاصة القول في هذا المقام، أن الفعل اللغوي يتمفصل إلى ثلاثة أقسام، فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن القول، غير أن الفعل الثاني قد يتزاح عن المعنى المباشر الذي يدلل عليه إلى الإحالة على دلالة إنجازية أخرى بطريقة غير مباشرة، يسوقها سياق الملفوظ/الجملة، وبالمقابل الجملة الواحدة تتفرع إلى ثلاث مستويات على النحو التالي:



وعلى هذا الأساس يكون القول عند "أوستين" مرتبطا بالفعل، والمقال بالمقام، ويتمتع الفعل اللغوي بجملة من الخصائص هي:

- مطابقتها للواقع والسياق.
- الإفصاح عن شعور نفسي ذاتي.
- امتلاك القدرة الإنجازية.

-خصوصية أسلوب الإنجاز.

-خصوصية القوة الإنجازية¹²

والأغراض الإنجازية للأفعال الكلامية متعددة يمكن حصرها في الآتي:

1. التقرير/الوصف: التعبير عن الواقع أو وصف حادث، مثل: "الجوربيني جميل"
2. الطلب: يقتضي أن يصدر المتحدث/المُرسل للخطاب طلباً إلى المتلقي/المُرسل إليه للقيام بفعل ما، مثل: "ادخلوا حالا إلى القاعة".
3. الإفصاح: أن يعبر المتكلم عن شعور نفسي ينتابه لمخاطبه، مثل: "سئمت الجلوس هنا"، "أشتاق إلى الأيام الخوالي".
4. الوعد: أن يتوعد المتكلم المخاطب بإنجاز فعل ما في المستقبل، مثل: "أعدك بجولة سياحية في القارب".
5. التصريح: أن يعلن المتكلم للمخاطب بأنه يصدر إنجاز فعل يحدث تغييراً على الواقع، مثل: "أعلن لكم عن بناء مكتبة قريباً".

وبهذا الشكل تتغيّر المقاربة التداولية أثناء تعاملها مع النص رصد الأفعال اللغوية وترتيبها إلى مستوياتها (القضوية، الإنجازية الإخبارية، السياقية)، وبالموازاة وذلك تصنيف الجمل وفق مميزات ومحتواها (السياقية، المقامية، الوظيفية، التداولية، القصديّة)، ونوعها (إنجازية صريحة، مضمرة..).

3- اللسانيات التداولية وآليات تلقي الخطاب:

إذا كانت التداولية في أجلى معانيها تعني البحث في العلاقة الكامنة بين الدوال اللسانية ومؤولها، أو هي دراسة استعمال اللغة في الخطاب، أو بتعبير "جورج بول" التداولية تدارس المعنى كما يسوقه المتكلم أو الناص/المبدع، ويتلقاه المتلقي/القارئ، وعطفاً على ذلك تنهض بتحليل الحوارات التي تجري بين المتخاطبين أكثر مما تهتم بما تنطوي عليه الكلمات أو تتضمنه الجمل، وبالمختصر المفيد هي دراسة مقاصد المتكلم¹³.

وإذا كان الخطاب في تحديده الدقيق يعني "كل مجموعة من الجمل يتم بها التواصل بين مستعملي اللغة"¹⁴، أو هو كل إنتاج لغوي ينهض بوظيفة تواصلية في إطار ظروف مقامية معينة، وهو بمفهوم بنفنيست "كل تلفظ يفترض متكلماً ومستمعاً، وعند الأول هدف التأثير على الثاني بطريقة ما"¹⁵ والحال هذه يحل النص محل الجملة في الدراسة اللسانية، وينتقل التحليل من لسانيات الجملة إلى لسانيات النص والسيميائيات، وهذا التعدد والتفرع أو بالأحرى الانفتاح الذي يجعل مفهوم الخطاب يتعالى على التحديد، هو الذي دفع "دومينيك مانقونو" (D.Mengueneau) إلى تقسيم الخطاب إلى:

- 1- الخطاب باعتباره كلام في ضوء لسانيات الجملة.
- 2- الخطاب باعتباره نص في ضوء لسانيات النص.
- 3- الخطاب باعتباره ملفوظ ينطوي على أبعاد سياقية في ضوء التداولية.

4- الخطاب باعتباره مشافهة ومحادثة.

وطبعا الخطاب في الحالين الثانية والثالثة هو الذي يتضمن شروط التحليل في نطاق لسانيات النص وتحليل الخطاب.

وإذا كان الأمر كذلك -على ما أشرنا سابقا- فإنه من نافل القول أن تحليل الخطاب الذي تجاذبته البلاغة أول الأمر، ثم اللسانيات البنوية، والبنوية النقدية، فالسيمائيات لاحقا، وظل يترنح بين الجانب الشكلي والعلماتي والتركيبى والأسلوبى، قد أخذ في الحقل التداولي لتحليل الخطاب بعدا آخر، تخطى آليات البلاغة البنوية الشكلية والنقدية، إلى السيمائيات التداولية ونظرية التواصل، فاتحا حقلا جديدا تحت عنوان الاتجاه التداولي في تحليل خطاب يضطلع بدراسة الخطاب وفق مستويات متنوعة تفيد من اللسانيات والسينمائيات ونظرية التواصل وتجاوز حدود الجملة إلى الإحاطة بنسق التواصل اللساني الشامل، الذي يتضمن النسق اللغوي في جملة معطياته الفكرية، فالتحليل التداولي لا يكتفي بالمعنى والعناصر التي تحدده في النص، بل يتغيا الكشف عن قصيدة المتكلم، عبر إحالة الملفوظ/الخطاب إلى السياق لتحري طبيعة العلاقة التي تصله بظروف السياق، بغية الإمساك بالقوانين التي تقف وراء برمجة دلالاته.

وأرضية منطلق التحليل التداولي في هذا الشأن، أن الخطاب اللغوي بقدر ما هو نسق متشابك من العلاقات الصوتية والتركيبية والدلالية، هو في الوقت ذاته فعالية أداء وإنجاز متصلة بسياقات مقامية وكلامية، إنه ملفوظ لساني يحتكم إلى نظام خاص، واستعمال تداولي معين يرمي إلى مقصدية معينة، ويتوخى غاية محددة ضمن ظروف تواصل تحددها شروط وقوانين مشتركة بين المتحاورين (المتكلم والمخاطب/المتلقي).

وبالمقابل المعنى اللغوي لا يتأتى من خلال اللّغة ذاتها وإنما بتعبير "ماليفنسكي": "وظيفة في السياق (Fonction in context) أي يتأتى من الاستعمال ويمكن حصر وظائفه في:¹⁶

-الوظيفة التداولية: عندما تأخذ اللغة شكل الحدث/الفاعل.

-الوظيفة السحرية: استعمال اللغة للتحكم في المحيط.

-الوظيفة السردية: اللغة تسرد معلومات تاريخية.

ولأنّ التحليل التداولي يقارب النصّ الأدبي من خلال ربط المعنى بالوظيفة السياقية والأداء الإنجازي، اختزل "جورج بول" التحليل التداولي الذي تمتهنه اللسانيات التداولية في أربع مستويات أساسية هي:

1-التداولية تتدارس المقصدية: الدلالية المتوخاة من طرف المتكلم، أي تهتم بالدلالة التي يتغيا المتكلم أو المبدع تبليغها ويقوم المتلقي/القارئ بتأويلها.

2-التداولية تتدارس المعنى السياقي: تقوم بتأويل وتحديد مقتضيات أسيقة الكلام الذي يجري بين الأفراد والأثر الذي يلعبه السياق في توجيه الكلام، كما تدرس الآلية التي تضبط ما يرغب في قوله المتكلمون احتكاما إلى انتماء وهوية المخاطبين والزمن والمكان، والظروف المحيطة بملايسات الكلام.

3-التداولية تدرس الاستدلال المصاحب للمتلقى: حيث تحاول الوقوف في هذا المقام على الطرائق التي يوظفها المتلقي/المستقبل للخطاب لإدراك الدلالة التي يتوخاها المتكلم، بما في ذلك دراسة ما لا يقال ويمرّ من المتكلم للمتلقى في شكل إيماءات أو إشارات أو تضمين في القول أو شيء من هذا القبيل، مما يدخل في المعنى غير المرئي.

4-التداولية تدرس علاقة القول بالتباعد: والمقصود بالتباعد هو مسافة القرب أو البعد المادي أو المعنوي (الاجتماعي، المفاهيمي) الموجود بين المتكلم والمتلقي، والذي من خلاله يحدد الطرفان حجم الكلام الذي يفى بالغرض¹⁷.

والفائدة التي ننتهي إليها بين هذا وذاك، أن التحليل التداولي يتدارس اللغة/الخطاب في ضوء تداولها من طرف مستعملها، من خلال الكشف عن الدلالة أو المقصدية ككل التي يتوخاها طرفا التواصل (المتكلم/الناص، المتلقي/القارئ)، وكذا أساليبيهما ومراميهما، وأنماط الأفعال التي يوظفونها، وكلّ ما يدخل في مسار صيرورة التواصل، أو له علاقة بها من قريب أو من بعيد. ومرد ذلك أنّ التداولية في واقع الأمر –بتعبير "فرستشيرن" (je f. verschueres)– لا تملك آليات إجرائية بعينها، "ولا موضوعات مترابطة، وهي تدرس اللغة من وجهة وظيفية عامة (التوظيف، الاستعمال، القصدية، السياق السوسيو ثقافي)، وهي بعد ذلك تمثل نقطة التقاء مجالات العلوم ذات الصلة باللغة بوصفها وصلة بينها وبين لسانيات الثروة اللغوية"¹⁸، واللغة بشكل عام يتجاذبها اتجاهان أحدهما يتدارسها بنويًا ونسقيًا، والآخر يتدارسها سياقيًا في مضمار الاستعمال/التداول والتواصل المجتمعي.

4- تلقي النص/الخطاب في نظرية البلاغة العربية:

تطالعنا البلاغة العربية بتصورات نظرية وإجرائية للخطاب تضاهي النظرية البلاغية والتداولية المعاصرتين في الكثير من النقاط، ومن ذلك أن علماء اللغة العربية القدامى قسّموا الخطاب اللغوي إلى قسمين اثنين: "لسانيات الجملة" و"لسانيات الخطاب" وهذا الأخير يتعامل مع مستوى ما بعد الجملة كموضوع له، وتتمفصل اشتغالاته إلى أربعة ميادين أساسية هي: البلاغة والنقد الأدبي، التفسير وأصول الفقه¹⁹، وهو التفسير الذي يحاكي ويواكب درس التداوليات وتحليل الخطاب في النظرية الغربية، خاصة أنّ علماء اللّغة العربية اهتموا أيّما اهتمام بالتّواصل اللّغوي وعناصره، من قبيل الاهتمام بالمتلقي/المستمع، والمتكلم، والجوانب التي تحيط بعملية التواصل وتؤثر في الإبلاغ، كما هو الشأن لمعيار الصدق والكذب، وقاعدة مطابقة النص/الملفوظ لمقتضى الحال والظاهر، أو مجاوزته له، ومن الذين تركوا بصماتهم في هذا الحيز: "الجرجاني" و"القرطاجني" و"السكاكي" و"الخفاجي" و"العسكري" و"الجاحط"، ويشكل الخطاب القرآني والخطاب الشعري أرضية منطلقهم نظريًا وإجراءً، لصياغة آليات ووضع قواعد وأسس تضطلع بتفسير الخطاب وشروط إنتاجه.

1-4 نظرية البيان عند الجاحظ:

يعود قصب السبق إلى الجاحظ في نقل التصور النظري العربي للخطاب، من الاهتمام بالجوانب الخارجية المساهمة في توليد الخطاب إلى الاهتمام بعناصر الخطاب نفسه، وتدارسه باعتباره خطاباً ينهض بدور الإبلاغ والإفهام، وبهذا الشكل نقل الجاحظ الشعرية العربية من شعرية الفحولة (ابن سلام الجمحي، الأصمعي) إلى شعرية البيان، التي وجهت البحث إلى الكشف عن الأدوات الفاعلة في الوظيفة البلاغية (التداولية) لاشتغال الخطاب، وخاصة المعايير التي تجعل من خطاب ما مستساغاً لدى المتلقي، ومقبولاً كونه يمتاز بالجودة وحسن الصياغة والتركيب، عوض الاكتفاء بالوظيفة الإبلاغية التي لا تضطلع بالجانب الجمالي، فيعتبر الجاحظ المعاني "مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي و(المدني)، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخيار اللفظ، وسهولة المخرج، وفي صحة الطبع، وجودة السبك، فإنما الشعْرُ صناعةٌ وضربٌ من النسيج وجنسٌ من التصوير"²⁰، ويعني هذا أنّ وعي الوظيفة البلاغية حسب الجاحظ يعود في الأساس إلى مدى خبرة ومعرفة الناقد/المؤول والممامه بعناصر عملية الاتصال الأدبي (المؤلف، المتلقي، النص، المقام).

ومن العناصر التي أولاهها الجاحظ الاهتمام البالغ في هذا المقام هو كيفية استعمال المعاني وتوظيفها في الخطاب نظير دورها في صيرورة التواصل وبشكل خاص الأثر الذي تتركه في المتلقي، يقول الجاحظ: "المعاني القائمة في صدور الناس، المتصورة في أذهانهم والمتغلغلة في نفوسهم .. مستورة خفية، ومحجوبة مكنونة .. لا يعرف الإنسان ضمير صاحبه، ولا حاجة أخيه وخليطه .. إلا بغيره. وإنما يحيي تلك المعاني ذكرهم لها، وأخبارهم عنها، واستعمالهم إياها. وهذه الخصال هي التي تقرها من الفهم، وتجلبها للعقل، وتجعل الخفي منها ظاهراً، والغائب شاهداً .. يكون إظهاراً للمعنى، وكلما .. كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور، كان أنفع وأنجع"²¹. ويعني هذا أن وضوح المعنى ييسر الفهم للمتلقي ويجعل الرسالة تصل إليه، وبالتالي تكون عملية التواصل تامة ولا غبار عليها.

أما البيان فيتخذ عند الجاحظ جانبا وظيفيا إجرائيا، وهو عنده "اسم جامع لكلّ شيء كشف لك قناع المعنى، وهناك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، أو يهجم على محصولة كائنا ما كان ذلك البيان .. لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضوع"²² ويتراءى من الشاهد أن البيان عند الجاحظ تتجاوزه ثلاثة مبادئ أساسية هي:

1. الوظيفة الإبلاغية/التعليمية: وتعني أن يتخذ الخطاب شكل الإبلاغ/الإخبار ليحقق وظيفة

الإفهام، وتتميز هذه الوظيفة بالحياد.

2. الوظيفة التأثيرية: أن يعمل الخطاب على استقطاب المتلقي ووخز عواطفه بغية استمالاته،

وتتميز هذه الوظيفة بالاختلاف.

3. الوظيفة الحجاجية: توظيف عناصر الحجاج والإقناع ويأخذ الخطاب شكل الاحتجاج

والاضطرار.

ويرجى "الجاحظ" طبيعة العلاقة الواصلة بين عناصر "الفهم" و"الإفهام" و"المقام" في نظريته البيانية إلى مواضع المستقبلين/المستمعين، ومواضع حالات الاستقبال. يقول الجاحظ: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات"²³، ويشي القول بشكل صريح أن الجاحظ يقسم نظريته إلى محورين أساسيين هما: التأثير والمقام، وهما الأرضية القاعدية لدرس التداوليات والبلاغة الجديدة وتحليل الخطاب المعاصرين.

4-2 شعرية البلاغة عند قدامة بن جعفر:

من أهم المسائل والقضايا الأدبية النقدية التي طرحها قدامة بن جعفر في كتابه "نقد الشعر" مسألة العلاقة العضوية بين البلاغة والشعرية، التي أضحت بموجها الأولى رديفة للثانية، تلازمها ولا تفارقها وبها ومن خلالها تتغيا تأويل الخطاب الشعري وتحينه في إطار مكوناته الشعرية، وكيف تتفاعل ككل متجانس في صياغة النص الشعري. وحدد قدامة العناصر المبنية للصناعة الشعرية في: الوزن، القافية، المقاطع، الغريب، اللغة، المعاني، المقاصد، وأشار إلى كيف عني "الناس بوضع الكتب فيها .. عناية تامة، فاستقصوا أمر العروض والوزن، وأمر القوافي والمقاطع، وأمر الغريب والنحو، وتكلموا في المعاني الدال عليها الشعر، وما يريد بها الشاعر"²⁴، وعمل قدامة على وصف المكونات ذاتها وصفا وظيفيا دقيقا، يسلط الضوء على كيفية تفاعلها في تركيب الصنيع الشعري، وهو يميز بين هذه القصيدة وتلك معللا جيد الشعر من رديئه، بناء على مقارنة تزكي النص الشعري أو تعييه من خلال معيار جودة "الائتلاف بين اللفظ والمعنى" و"الوزن والقافية" أو العكس أي عدم الائتلاف، وهي الرؤية التي تنم عن مشروع يتغيا صياغة نظرية بأدوات إجرائية واضحة المعالم.

4-3 نظرية الصحة والانسجام عند الخفاجي:

اضطلع الخفاجي وهو يتباحث "سرّ الفصاحة" في "سرّ الفصاحة" بدراسة البنية الصوتية في النص الشعري، معرجا على الأصوات ومخارج الحروف مينا مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها، وكيف تتعاطى مع الفصاحة أو بالأحرى كيف تُنتج "الفصاحة"، وفي خضم ذلك لفت الخفاجي الانتباه إلى شيء غاية في الأهمية في النظرية التداولية المعاصرة، وهو أن الكلام عندما ينتظم انتظاما صحيحا، ويبينه تركيبا منسجما يؤدي وظيفة نفعية، قوامها المواضعة والقصدية، وانخراط الأنا المتكلم في نص الكلام، ففي تقديره "الكلام يتعلق بالمعاني والفوائد بالمواضعة، لا لشيء من أحواله"²⁵.

وأناء توصيفه لشروط المعاني المفردة اقترح في الشرط الخامس أن يلزم الوصف الصحيح الغرض، لأنه شرط من شروط الصحة، "وهو أن يُمدح الإنسان بما يليق به ولا ينقر عنه .. وعلى هذا السبيل يجري الأمر في النسب فيذكر فيه صدق الهوى والمحبة .. وكذا في كل الأغراض الشعرية من هجاء وفخر وعتاب ووصف .. حتى يكون كل شيء موضوعا في المكان الذي يليق به"²⁶.

وفي الشرط الثامن يتطرق الخفاجي إلى المثالية وصحة التأليف، مطالبا بوضع الألفاظ موضعها، لأن قانون المواضعة يقتضي ذلك، ومنه ألا يوظف الشاعر في غرض المدح ألفاظا مستعارة من غرض الذم والعكس بالعكس، "بل يستعمل في جميع الأغراض الألفاظ اللائقة بذلك الغرض في موضع الجد ألفاظه، وفي موضع الهزل ألفاظه"²⁷. وهنا إقرار صريح بضرورة أن تلازم المواضعات المفردات في الكلام/النص، وأن تنبثق من المناسبة التي إن أحالت على شيء فإنما تحيل على الزمن والمكان، مما يعني أن طرح الخفاجي ها هنا لا يختلف عن طروحات البلاغة الجديدة وبشكل خاص في شقها الإبلاغي التداولي²⁸.

4-4 الجرجاني وبلاغة الإعجاز ونحو الشعر:

مقحما الفكر اليوناني إلى جانب الفكر البلاغي العربي موضع "الجرجاني" مشروعاً نظرياً يرمي إلى تحديد بلاغة الخطاب في نطاق "الإعجاز"، الذي فتح المجال على رؤية تداولية تستهدف الوقوف على معايير وشروط توليد الخطاب وتأويله، خلص فيها إلى أن الكلام يرتبط أشد الارتباط بالجانب النفسي مما يجعله جملة معان تقتضي الضرورة بمعينته الاهتمام بحالة المخاطب/المتكلم في النص الشعري، وكذا حالة المعنى من حيث الوضوح والغموض، وهكذا جاءت بلاغة الجرجاني بلاغة نصية، قوامها قاعدة "النظم" التي تنهض بفعل الموازنة بين النثر العادي والنثر الأدبي من زاوية، وبين طبقات ومراتب الأدبية أو الشعرية في النثر الأدبي ذاته من زاوية ثانية.

وربط الجرجاني النظم بالإعجاز القرآني لأنه في تقديره الإعجاز في "القرآن الكريم" يقوم على النظم، وحدده في تحديد موجز مفاده "تعليق الكلام بعضه في بعض، وجعل بعضه سبب من بعض"²⁹، ووصله أيضاً بمعاني النحو لأن النظم في نظره هو وضع الكلام حسب ما يقتضيه علم النحو معتبراً أن المفردة في اللغة العربية لا معنى لها ولا قيمة جمالية لها وهي منفردة، وتكتسب الدلالة والقيمة الأدبية في مضممار النسق الجملي، كما أنه لا يمكن أن نفاضل بين الألفاظ إلا في إطار الجمل والعبارات التي تضمها وتكون في صياغات متنوعة.

إن النظم عند الجرجاني هو أساس الشعرية أو باصطلاحه "معنى معنى" وهو لا يرتبط ببلاغة العبارة مثلما كان سائداً عند السابقين عليه، وإنما يرتبط ببلاغة السياق التي تنظر إلى الكلام في حيز النسق الذي يضمه وبشكل خاص علاقته بـ: التناسب والانسجام والمواءمة فضلاً عن وجوب ارتباط الغرض بمقتضيات التواصل، وهي النقاط التي جعلت نظرية الجرجاني تنتقل من التعاطي مع النحو الكلاسيكي الذي قوامه الجملة مستقلة عما سواها إلى "قواعد التماسك النحوي، ومنها العطف والحذف والاستئناف وهي قواعد أشار إليها، ونبه عليها محدثون منهم رقية حسن وهاليداي، وفان ديك"³⁰ بغية صياغة نظرية تضطلع بنحو الخطاب.

ولا يحتاج الأمر إلى كبير تمعن لنفهم أن نظرية صاحب كتاب "الأسرار" تحتكم إلى "الاستعمال اللغوي"، وما يُجلى ذلك على صورته الكاملة إقراره بأن "مدار أمر النظم على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه، فاعلم أن الفروق والوجوه كثيرة ليس لها غاية تقف عندها (..) ثم اعلم إذن ليست المزية بواجبة لها في أنفسها ومن حيث هي على الإطلاق ولكن تعرض

بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لها الكلام، ثم بحسب موقع بعضها من بعض واستعمال بعضها مع بعض"³¹.

وفي إشارته للمعنى و"معنى المعنى" يتراءى جليا أن نظرية النظم في اشتغالها التداولي الذي يراهن على الاستعمال الكلامي والمقصدية السياقية، سلطت الضوء أيضا على الإيحاء والانزياح الدلالي وربطتهما بالمقام النظمي والصدى الذي يتركه في مستقبل الخطاب، فالمعنى عند الجرجاني هو "المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، ومعنى المعنى أن نعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر، فالمعاني الأولى هي التي تفهم من نفس الألفاظ والمعاني السوابق هي التي يوماً إليها بتلك المعاني"، وعلى هذا المنوال نظر الجرجاني للوظيفة الأدبية تحت مظلة الفلسفة والأجواء النفسية مركزا جهوده على المقصدية التي يتوخاها المتكلم/الناص، مرفوقة بمقامها السياقي، ففي تصويره المعاني تكون مرتبة في الذهن، وفي الوقت الذي يقوم المتكلم بالحديث تنتظم الألفاظ تلقائيا، لأن العلم بمواضع المعاني في النفس، يترتب عنه علم بمواقع الألفاظ في حال النطق، ومن ثم فالمبدع/الناص لا يشغل باله في التفكير في المفردات بقدر ما يركز تفكيره في اختيار المعاني المتنوعة، لأن اللفظ ليس إلا وعاء يتشكل به المعنى.

ومن هنا بوسعنا القول إن الجرجاني موضع نظرية بلاغية تداولية مكتملة المعالم باعتبارها وصلت التواصل الخطابي بقصد المتكلم، والسياق وموقع المستقبل للخطاب في النص الشعري، والمعنى في علاقته بالتركيب، والمفردة في علاقتها بالجملة..

4-5 نظرية علم الأدب والبلاغة المقامية عند السكاكي:

ترى الكثير من الدراسات الجادة في اللسانيات والنقد أن نظرية "السكاكي" تعد تنمة لنظرية "الجرجاني" وفي نفس الوقت تقدم قراءة ناقدة لها، صدحت بما لم تصدح به الأولى مثلما هو الشأن لتجاوز السكاكي للذوق الذي اعتبره ينم عن إشكال منهجي ودعوته إلى الاحتكام إلى العقل، يقول السكاكي: "ليس من الواجب في صناعة، وإن كان المرجع في أصولها وتفاريعها إلى مجرد العقل أن يكون التخيل فيها كالناشئ عليها في استفادة الذوق منها، فكيف إذا كانت الصياغة مستندة إلى تحكيمات وضعية واعتبارات إلفية، فلا على التخيل في صناعة علم المعاني، فيقلد صاحبها في بعض فتاواه إن فاته الذوق"³²، وقد حاول السكاكي في خضم هذه الرؤية التوفيق بين بلاغة الحجاج/الإقناع عند الجاحظ وبلاغة الإمتاع عند الخفاجي، معتبرا أن البلاغة مفتاح العلوم. ولذلك عرج في دراسته على كل المستويات "الصوتية"، "التركيبية"، "القصدية"، "التداولية".

4-6 نظرية البلاغة النقدية عند القرطاجني:

في مقارنة (بلاغية) فريدة من نوعها استثمر "القرطاجني" في الموروث البلاغي العربي وفي الفكر الفلسفي اليوناني، وخاصة في الإرث الأرسطي مؤسسا لنظرية "علم البلاغة" في كتابه "منهاج البلغاء وسراج الأدباء" التي اعتبرها علما شاملا عكس اعتبارات البلاغيين العرب الأولى، التي كانت تتعامل مع علم البلاغة الجزئي (البيان، المعاني، البديع)، يقول في هذا الشأن: "وقد سلكت من التكلم في جميع ذلك مسلكا لم يسلكه أحد قبلي من أرباب هذه الصناعة لصعوبة مرامه وتوعد سبل

التوصل إليه، وهذا على أنه روح الصنعة وعمدة البلاغة .. فإني رأيت الناس لم يتكلموا إلا في بعض ظواهر ما اشتملت عليه تلك الصناعة، فتجاوزت أنا تلك الظواهر بعد التكلم في جمل مقنعة مما تعلق بها إلى التكلم في كثير من خفايا هذه الصناعة ودقائقها³³. وتتفرد نظرية القرطاجني من حيث اشتغالها على "البلاغة المعضودة بالأصول المنطقية والحكمية"، ومن حيث جنوحها إلى الشمولية، فهي تعنى بعلوم النقد مجتمعة، وكل ما يجب معرفته لإتقان صناعة الشعر وحذقه؛ أي إخضاع الخطاب الشعري للقواعد البلاغية برمتها بعد توسيعها وتقنينها، ففي تصوره "لو وجد الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى وتبحرهم في أصناف المعاني، وحسن تصرفهم في وضع الألفاظ بإزائها وفي إحكام مبانيها لزيد على ما وضع من قوانين الشعرية"³⁴.

لقد أراد القرطاجني أن يؤسس "لبلاغة نقدية" كلية وجامعة تضطلع بدراسة الخطاب الشعري ثقافيا واجتماعيا وتدارس الأدوات التعبيرية الموظفة من قبل الناص بغية تحقيق المقصدية؛ أي علاقة الأدوات بالمهمة والماهية ضمن "العلم الكلي" بتعبيره، الذي ينهض على قاعدة التناسب بما تشتمل عليه من مباحث لغوية/لسانية، فهو يرى أن "معرفة طرق التناسب في المسموعات والمفاهيم لا يوصل إليها بشيء من علوم اللسان، إلا بالعلم الكلي في ذلك وهو علم البلاغة الذي تندرج تحت تفاصيل كلياته ضروب التناسب، والوضع"³⁵، وفي معرض تنظيره للشعرية والنظم ومسائلها المتشعبة، لا يخالج القارئ أدنى شك أن "القرطاجني" يوضع نظرية نقدية لا تشوبها شائبة لمفهوم الخطاب، تدارس اللفظ والمعنى في إطار الجملة، وتدارس قضايا النظم والأسلوب في حيز النص، مسلطة الضوء على بناء النص ككل وعلى تماسكه وانسجامه واتساقه.

إن ماهية الإبداع تتحقق على مستوى ذات المبدع حسب "القرطاجني"، وهي مشروطة بجملة من الكفايات ينبغي أن تتمتع بها هذه الذات، من بينها التأثير في الملتقى من قبيل شحنه بقيمة ما، أو إقناعه بمسألة ما، أو حثه على تبني موقف معين، أو امتلاك ناصية اللغة كأداة .. إلخ.

وهي المعطيات التي إن دلت على شيء فإنما تدل على توخي "القرطاجني" للبعد التداولي في تنظيراته للبلاغة النقدية، ويستوقفنا ذلك في تركيزه على أن تأخذ عملية التواصل سيرورتها الكاملة من خلال تحقيق شروط القصد والفائدة، والفهم، والتأثير، والمنفعة.

فعلى مستوى عنصر التفاهم ذهب إلى أنه "لما كان الكلام أولى الأشياء، بأن يجعل دليلا على المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها"³⁶، ومعناه أن يقود التواصل للتفاعل، وأن يحقق غايته الجوهرية المتمثلة في إبلاغ قصد المرسل/المخاطب إلى المرسل إليه/الملتقى وبذلك تتأتى المنفعة والقصدية والفهم.

أما في مستوى التأثير فيرى "القرطاجني" أنه "وجب أن يكون المتكلم يبتغي إمّا إفادة المخاطب أو الاستفادة منه .."³⁷، وهذا عينه ما تنص عليه البلاغة الغربية الجديدة.

وفي حديثه عن المنفعة وعلاقتها بالشعرية يقول: "المعاني التي احتاج الناس إلى تفاهمها أي احتياجهم إلى تحصيل المنفعة"³⁸: أي أن أسى ما تصبوا إليه الشعرية هو تحقيق عنصر التواصل من خلال إثارة عناصر التأثير والتفاعل المجتمعيين في المتلقي.

وتتم هذه الحقائق أن النظرية البلاغية عند "حازم القرطاجني" يسمها بعد فلسفي عميق وسياس منطقي دقيق وتصور تداولي لا تشوبه شائبة، يجعلها ترقى إلى مستوى العلم اللساني.

خاتمة:

خلاصة القول أنه لدى ملمة وشائج الوصل بين النص/الخطاب والبلاغة والتلقي، للوقوف على موقع الخطاب بين بلاغة التلقي وتلقي البلاغة وحدود التماس بينهما، وكيف يمكن تحديد معالم كل مستوى على حدة ننتهي إلى النتائج الأساسية التالية:

أولاً: إن التصور الرؤيوي للبلاغة، سواء كانت بلاغة عامة أو بلاغة نوعية تختص بمجال محدد، ينبغي أن يوضع في أولى أولوياته أن كل خطاب يرمح تلقيه وفق بلاغته الخاصة التي تمتح في الأساس من حسه وبنائه وموضوعه، ويرتبط هذا التلقي البلاغي بمبدأ الاحتمال وليس بمبدأ الثابت أو النمطي.

ثانياً: تنماز المقاربة البلاغية للخطاب الأدبي عن باقي النظريات القرائية النصية، أنها تقارب الإبداع الأدبي في نطاق تلقيه، وبالضبط في حيز تأثيره في القارئ، حيث تسلط الضوء على هذا الحيز الذي يصل بين الإبداع والقارئ، مقتفية تجليات الأثر الجمالي والحجاجي الإقناعي الذي يسيجّه النص لاستقطاب متلقيه، وهنا تتقاطع بلاغة التلقي مع تلقي البلاغة، ذلك أن الأشكال الذي الذي يساور الإجراء البلاغي في مضمار الحيز هو تداخل الجانب الجمالي الداخلي الذي يؤثته النص مع الجانب الخارجي الذي يتقدم به القارئ، المتمثل في المسار التداولي بما ينطوي عليه من أبعاد ذوقية ومعرفية وإيديولوجية، وهو التداخل الذي لا يجيزه الكثير من منظري البلاغة، ويعترض عليه البعض، ويتحفظ عليه البعض الآخر. إذ منهم من يحصر البلاغة في الحجاج ويعتبرها بلاغة حجاجية تدارس فقط ما هو تداولي إقناعي في الخطاب الأدبي، ومنهم يعتبرها بلاغة أسلوبية تنهض بدراسة الصورة البلاغية (الفنية والجمالية)، أشكالها وتمظهراتها في النص.

ثالثاً: إن الحدود الفاصلة بين النطاق الحجاجي والنطاق التخيلي في التنظيرات البلاغية من ناحية، والبعد التواصلية الذي يسم الأعمال الأدبية من ناحية أخرى، لم يمنع الكثير من البلاغيين الجدد في مضمار البلاغة الجديدة من وصل البلاغة بالأدب أسلوباً وحجاجاً، للعديد من الاعتبارات، يأتي تليقها أن البلاغة كما تنطوي على الحجاجي والإبلاغيا الإقناعي، تنطوي أيضاً على الجيد والجمالي، وهي المكونات عينها الموجودة في الأدب.

رابعاً: الرؤيا البلاغية النظرية في شكلها العام والخاص من زاوية، وتفرد كل خطاب وكل جنس أدبي ببلاغة خاصة به من زاوية ثانية، يستوجب الاحتكام إلى بلاغة عامة كلية تنهض بتدارس الخطابات جميعاً، ولكن تتعامل مع كل خطاب وفق خصوصيته، وبهذا الشكل لا تدوب القاعدة العامة للبلاغة الأدبية في نماذج الخطابات وأنماط النصوص الأدبية، ولا يذهب الجوهر البلاغي

سدا في الأشكال البلاغية التي تقترحها الخطابات التخيلية وأدوات المناهج النقدية التي يستعين بها النقاد؛ أي ينساق التحليل البلاغي وراء أنواع بلاغية تنتجها أجناس الأدب المتنوعة، لا علاقة لها بالمبادئ الأصلية للبلاغة.

خامسا: إذا كان الخطاب الأدبي قوامه ركيبتين أساسيتين تشتغلان بانتظام وتوازٍ لبعث جمالية وسحره وأدبيته، هما موضوع الأدب وصورته، فإنه مع ذلك لن يؤتى أكله الجمالي أو يترك أثرا في متلقيه، إلا إذا أزر الركيبتين السابقتين الرابط الذي يجمع بينهما، ألا وهو تجانس وتناسق أجزاء الصورة الأدبية مع المضمون، وكذا تطابق وتناسب فضاء النص الأدبي مع الغرض الذي يخوض فيه والقيمة التي يسوق لها والمتلقي الذي يتقصد استثارته والتأثير فيه، وهذه الأسس هي التي تجاذبت النقد والنقاد قديما وحديثا على مرّ التاريخ، وأسالت الحبر الكثير للمناهج والنظريات القرائية، وهي في واقع الأمر القاعدة الأرضية التي تأسس عليها الدرس البلاغي.

سادسا: بالرغم من أن البلاغة تعزف على الوتر العام والتطابق المشترك، المعبر عنه بالفاعلية الخطابية أو التمظهرات الأسلوبية التي تضيء الطابع الجمالي والأدبي على النص، بينما النص كجنس أدبي يعزف على الوتر الذاتي الفردي الخاص وعلى اعتبارات نمطية يعينها، (الرواية تحيل على التخيل، والخطابة تحيل على الحجاج، المقال يوظف الأدلة والشواهد ..)، مع ذلك الجنس الأدبي في جميع الحالات وسائر الأوقات، يستحيل أن ينهض على التفرد والذاتية بمفردهما، لأنه بحاجة ماسة إلى نقاط مشتركة ومواضع يتقاطع فيها مع متلقيه، من قبيل جملة المعايير والمسلمات السائدة والمشاركة، وإلا غلق المجال على نفسه، وصدّ الأبواب أمام تلقيه.

سابعا: التلقي الذي تتبعه البلاغة الجديدة يحتكم إلى الإجراءات التداولية والحجاجية، والطروحات اللسانية والسيمائية، وجملة من الروافد المعرفية، النفسية والاجتماعية والفلسفية والاستدلالية .. وبهذا المنطق لا يحصر البلاغة في مضمار المحددات الفنية الأسلوبية، التي تكتفي بمواضع التشخيص والتصوير، بل يتعدى ذلك إلى ربط البلاغة بالحياة الاجتماعية باعتبارها إجراءات تداولية وإقناعية وقيمية ومنطقية وعاطفية، تشتغل على التأثير في الجمهور المتلقي/القارئ، وتوجيه سلوكه، وتجلي الرؤيا اتجاه القضايا المجتمعية.

ثامنا: تؤثت النص الأدبي ثلاثة جوانب هي التشخيص أو التمثيل والدلالة والتداول، يقابلها على صعيد التلقي ثلاثة عناصر تتمثل في المخاطب والبنية والمخاطب، وتتفاعل الجانبين تتم عملية التواصل، ممّا يعني أن النص ينبغي أن يكون منفتحا على متلقيه كي يتسنى له إيصال مرامي الكاتب، ومرامي البنية، ومرامي التلقي، وهذه المحاور تجسد الأبعاد البلاغية للتواصل الخطابي.

إن التلقي الذي تستهدفه البلاغة العامة وجد ملاذه في اللسانيات التداولية فأوضحت البلاغة الجديدة بلاغة تداولية، ترصد مسافة الاتصال الكامنة بين المتكلم والمتلقي وكيف يؤثر الأول في الثاني، وهكذا تبلورت في شكل نظرية مقصدية تداولية تضطلع بمسار التلقي والعلاقة الحوارية بين المتخاطبين (الكاتب والقارئ).

الإحالات :

- ¹-بن عيسى حنفي، (1990)، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. ص: 79.
- ²-نفس المرجع السابق، ص: 79.
- ³-بوحسن أحمد، (2004)، نظرية الأدب، "القراءة الفهم التأويل" نصوص مترجمة، دارالأمان للنشر، ط1، الرباط، المغرب، ص: 30.
- ⁴-نفس المرجع السابق، ص 31.
- ⁵-نفس المرجع السابق، ص 31.
- ⁶-Le Guem Michel, Metaphor et argumentation, in Largumentation: Lyon: presses universitaires de Lyon, 1965, p: 65.
- ⁷-أبوحيان التوحيدي، (1986)، المقابسات، دارالمدى. ص: 92
- ⁸-مشب الهشام، (2015)، البلاغة و السرد و السلطة في الإمتاع و المؤانسة. دار كنوزالمعرفة للنشر و التوزيع، ط1، عمان، الأردن. ص: 13
- ⁹-أبوعقوب يوسف السكاكي، (1987)، مفتاح العلوم، تح: زرزور، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان. ص: 16.
- ¹⁰- Cf-J-L Austin, Quand dire Dest faire, introduction, traduction et commentaire par Gille Lane, ed du seuil, paris, 1972, p: 114.
- ¹¹-ختم جواد، التداولية أصولها واتجاهاتها، ص: 91.
- ¹²-أوستين جون، (2005)، نظرية أفعال الكلام، تر: عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء، المغرب، ص: 25.
- ¹³-Georges yule «pragmatics», oxford university, press, New York, 1996, p: 03.
- ¹⁴-المتوكل أحمد، (2001)، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر و التوزيع، الرباط، المغرب، ص: 18
- ¹⁵-Benveniste cf. Emile, problèmes de l'linguistique général 2Ed Gallimard, 1974, p: 81.
- ¹⁶-أحمدنخلة محمد، (2003)، مدخل إلى علم لغة النص، تر: سعيدبجيري، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، مصر، ص: 25
- ¹⁷-يولجورج، (2010)، التداولية، تر: قصي العتاي، دارالأمان، ط1، الرباط، المغرب، ص: 20/19.
- ¹⁸-بليغ عيد، (2009)، التداولية: البعد الثالث في سيميوطيقا موريسمن اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، بلنسية للنشر و التوزيع، ط1، القاهرة، مصر، ص: 154
- ¹⁹-الخطابي محمد، (1991)، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، بيروت، لبنان، ص: 95.
- ²⁰-الجاحظ أبو عمرو بن بحر، الحيوان، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، ج3، ص: 131-132.
- ²¹-أبو عمرو بن بحر الجاحظ، (1988)، البيان و التبيين، تقديم و شرح علي أبو ملحم، منشورات دارمكتبة الهلال، ط1، بيروت، لبنان، ص: 81-82.
- ²²-نفس المرجع السابق، ص: 82/1.
- ²³-ابن جعفر قدامة، (1989)، نقد الشعر: تح: كم المصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر. ص 15.
- ²⁴-قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص: 15.
- ²⁵-ابن سنان الخفاجي، (1969)، سر الفصاحة، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة و مطبعة محمد علي صبيح و أولاده، مصر. ص: 43.
- ²⁶-العمري محمد، (1999)، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، لبنان، ص: 441.
- ²⁷-الخفاجي، سر الفصاحة، ص: 164.
- ²⁸-ويشكل خاص عند "وولسن" في رؤية للمناسبة (pertinence) وعلاقتها بانسجام واتساق الخطاب.
- ²⁹-الجرجاني عبدالقاهر، (1998)، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشد رضا، دار المعرفة للطباعة و النشر و التوزيع، ط2، بيروت، لبنان، ص: 66.
- ³⁰-خليل إبراهيم، (2007)، في اللسانيات و نحوالنص، دارالمسيرة للتوزيع والنشر، ط1، عمان، الأردن. ص 236.
- ³¹-الجرجاني عبدالقاهر، دلائل الإعجاز، ص: 221.

- ³²- أبو يعقوب السكاكي، (2000)، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هندواوي، منشورات محمد علي بيضون، دارالكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، ص: 169.
- ³³- أبو الحسن حازم القرطاجي، (1986)، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح: محمد الحبيب الخوجة، دارالغرب الاسلامي، ط3، بيروت، لبنان، ص: 53.
- ³⁴- القرطاجي، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص: 16.
- ³⁵- الوهبي فاطمة، (2002)، نظرية المعنى، عند حازم القرطاجي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، ص: 273.
- ³⁶- القرطاجي، منهاج البغاء وسراج الأدباء، ص: 18.
- ³⁷- نفس المرجع السابق، ص: 19.
- ³⁸- نفس المرجع السابق، ص: 20.

المراجع:

- أحمد نخلة محمد، (2003)، مدخل إلى علم لغة النص، تر: سعيد بحيري، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر.
- أوستين جون، (2005)، نظرية أفعال الكلام، تر: عبد القادر قنيني، أفريقيا الشرق، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
- أبو عمرو بن بحر الجاحظ، (1988)، البيان والتبيين، تقديم وشرح علي أبو ملح، منشورات دار مكتبة الهلال، ط1، بيروت، لبنان.
- أبو يعقوب السكاكي، (2000)، مفتاح العلوم، تح: عبد الحميد هندواوي، منشورات محمد علي بيضون، دار للكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان.
- أبو يعقوب يوسف السكاكي، (1987)، مفتاح العلوم، تح: زرزور، دارالكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان.
- أبو حيان التوحيدي، (1986)، المقابسات، دارالمدى.
- أبو الحسن حازم القرطاجي، (1986)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دارالغرب الاسلامي، ط3، بيروت، لبنان.
- الوهبي فاطمة، (2002)، نظرية المعنى، عند حازم القرطاجي، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب.
- العمري محمد، (1999)، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، المغرب، بيروت، لبنان.
- الجرجاني عبد القاهر، (1998)، دلائل الإعجاز، تح: محمد رشد رضا، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان.
- الخطابي محمد، (1991)، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، بيروت، لبنان.
- المتوكل أحمد، (2001)، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية، بنية الخطاب من الجملة إلى النص، دار الأمان للنشر والتوزيع، الرباط، المغرب.
- ابن سنان الخفاجي، (1969)، سر الفصاحة، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر.
- بليغ عيد، (2009)، التداولية: البعد الثالث في سيميوطيقا موريس من اللسانيات إلى النقد الأدبي والبلاغة، بلنسية للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، مصر.
- بن جعفر قدامة، (1989)، نقد الشعر، تح: كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر.
- بن عيسى حنفي، (1990)، محاضرات في علم النفس اللغوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- بوحسن أحمد، (2004)، نظرية الأدب، "القراءة الفهم التأويل" نصوص مترجمة، دار الأمان للنشر، ط1، الرباط، المغرب.
- يول جورج، (2010)، التداولية، تر: قصي العتاي، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب.
- مشبال هشام، (2015)، البلاغة والسرد والسلطة في الإمتاع والمؤانسة، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن.
- ختام جواد، التداولية أصولها واتجاهاتها.
- خليل إبراهيم، (2007)، في اللسانيات ونحو النص، دار المسيرة للتوزيع والنشر، ط1، عمان، الأردن.
- Austin Cf-J-L, Quand dire Dest faire, introduction, traduction et commentaire par Gille Lane, ed du seuil, paris, 1972.
- Benveniste cf. Emile, problèmes de l'linguistique générale 2Ed Gallimard, 1974.
- Georges yule «pragmatics», oxford university, press, New York, 1996.
- Le Guem Michel, Metaphor et argumentation, in L'argumentation: Lyon: presses universitaires de Lyon, 1965.